Mona maghraby

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مركز الشبكات وتكنولوجيا المعلومات

قسم التوثيق الإلكتروني

Mona maghraby

جامعة عين شمس

التوثيق الإلكتروني والميكروفيلم

قسم

نقسم باللّه العظيم أن المادة التي تم توثيقها وتسجيلها

علي هذه الأقراص المدمجة قد أعدت دون أية تغيرات

Mona maghraby

بعض الوثائق الأصلية تالفة
وبالرسالة صفحات لم ترد بالأصل

B ١٨٠٦٨

جامعة الإسكندرية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية واللغات الشرقية وآدابها

أثـــر أبى نواس فى شـــعراء القرنين الثانى والثالث الهجريِّيْن

إشـــراف
الأستاذ الدكتور/ محمد زكى العشماوى

رسالة ماجستير

إعـــداد الباحث
حازم صالح حسن اليظى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

إهـــــــداء

إلى أبى، نمـوذج الإنسـان الفنـان العـالم، المِعْطـاء دوْمـاً فـى صـبر نـادر وإيثـار بـاهر، إن كلمـاتى لا تقـوم بحـق وصـف حدبه المتناهى علىَّ شخصياً، ورعايته النبيلـة المتفانيـة لآلـه ولطلابه ولأصدقائه ومحبيه.

حازم صالح حسن اليظى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد كان دافعى الأساسى للاشتغال بموضوع بحثى هذا، هو الإدراك المتفهم لعظم شأن أبى نواس فى خريطة الشعر العربى، باعتباره شاعراً مجدداً وثورياً آمن إيماناً لم يتزعزع بأهمية التفاعل الحضارى مع مستجدات العصر الوافدة التى طرأت، والتى بموجبها يتحتم على المرء المتحضر أن يبحث لنفسه عن دور خلاق يحقق ذاته، ويجعله - وفقاً لإمكانياته - مؤسساً بادئاً، لا مجرد تابع لتقاليد فنية واجتماعية تجاوزها التقدم وعفا عليها الزمن، وباتت متنافرة مع سمات العصر وخصائصه الحاكمة، وصار الركون إليها بمثابة هدم لوحدة المبدع النفسية، ولصدقه الفنى الذى يهب تجربته الشعرية الحياة والنماء. ولا يتحقق الشاعر بذلك إلا إذا انبعث فى إبداعه عن حياة حقيقية هو بالتحديد عنصر فعال من عناصر تكوينها، لا عن حياة جاهلية تتسم بالخشونة والجفاف و لا وجود لها إلا إن استدعتها الذاكرة قسراً، لتتناقض مع التجديد المزدهر الذى أتى نتيجة لاختلاط العرب بالفرس و بالشعوب الداخلة فى الإسلام وفى إطار دولته الجديدة.

فلقد ترجمت الكتب المختلفة التى تنقل حضارات تلك الأمم من فكر وآداب وثقافات متنوعة، أثرت الفكر والوجدان العربى ونقلت الحياة نقلة جديدة تمردت بها على الأوضاع القديمة فشيدت الرياض على الطرز الفارسية والحانات الخمرية أيضاً، وَوُجِدَ السقاة من الغلمان الفرس الذين يرتدون أبهى الثياب والزينة الفارسية، ونشأت اللغة المولدة التى تتميز بإدخال ألفاظ فارسية وتحويل جانب من الكلمات العربية عن خشونتها الجاهلية إلى الرقة العذبة، ونتيجة لهذا وقع إجحاف نقدى صارم من لغويين ونقاد متزمتين يتعصبون للقديم ولا يعترفون بتطور ولا تجدد نشأ على الساحة، فيلزمون الشعراء بالبقاء مكبلين بأغلال التقاليد الشعرية الجاهلية التى كانت لها ظروفها ومناخها الذى لا صلاحية لها إلا فى أجوائه مما يجور على التجربة الشعرية بقمع صدقها الفنى الذى لا تكتمل مقوماتها إلا من خلاله.

وفى خضم هذه المعطيات نشأ الصراع بين العرب والموالى، فالعرب شعروا بما يؤرقهم من هذا الزحف الفارسى الذى جاء بالفرس وغيرهم كى يزاحموا العرب فى أماكنهم ومكانتهم وقد يزرع دولة، داخل الدولة فأخذ العرب يتعرضون لهم بالإهانات اللاذعة والسخرية من منبتهم وأصلهم ونشأت بذلك الشعوبية التى قام فيها الفرس بالترويج لمبادئهم التى هدفوا من خلالها إلى اقتلاع العرب من تقاليدهم وعاداتهم كى ينضووا تحت اللواء الفارسى والأجنبى الجديد، وامتزجت تلك الدعوة أيضاً بإهانات الفرس للعرب من نمط حديثهم عن خشونة معيشتهم وجفاف بيئتهم فهى مقارنة بالبيئة الفارسية تفتقد الرقة ولا تتمتع بتلك المظاهر الحيوية التى تزخر بها بلاد فارس. ونشأت بناءً على هذا نداءات التحرر التى تنادى بضرورة تحقيق الإنسان لسيادة ذاته على ما سواها من تشريعات اجتماعية بالية لا تتفق مع المستجدات العصرية، وبضرورة الاتجاه إلى جماليات الحياة من لهو و انغماس فى شتى ضروب الملذات كى يصبح الإنسان متعايشاً مع كل مظاهر التطور الحضارى.

وقد كان أبو نواس - فنياً وإنسانياً - مجسداً لتلك النداءات المتحررة، وتميز صنيعه بأن جعل الفن مرآة لمظاهر التطور والتجديد هذه بحيث يكون تطبيقاً خلاقاً لها يبلورها، وذلك لإيمانه بأن الفن والحضارة والحياة وجوه لجوهر واحد. ولا فن إلا عندما يكون معبراً عن تلك الأوجه جميعاً وقد دعا أبو نواس فى فنه هذا إلى وجه مهم من وجوه الحياة وهو ضرورة اقتران السلوك الإنسانى بهذا التطبيق العملى أيضاً بحيث لا يتحقق للإنسان ما يصبو إليه من حرية إلا بأن يتلازم مع تلك الحرية الجهر بها والتحديق فى أعين

لا يتحقق للإنسان ما يصبو إليه من حرية إلا بأن يتلازم مع تلك الحرية الجهر بها والتحديق فى أعين المجتمع استمساكا بها، لأنها لا تصل إلى ذروتها إلا عندما ما يواجه الإنسان الحر المجتمع فى مجابهة علنية، يعلن فيها تمرده ورفضه لتشريعاته المجحفة التى تهدم الإنسان و تجعله أسير تلك القيود التى تعصف بالصدق الفنى، فهنا يتحقق للمتعة الناشئة من ممارسة الإنسان للذته اكتمالها، لأنها تقترن بغبطته حين يحقق لمفردات كيانه التوحد الكامل. وبذلك تفوق المتعة هنا تلك المتدثرة بالتوارى لأن الأخيرة تعنى استسلام الإنسان للتشريعات الاجتماعية التى تخطاها الزمن الجديد وفقاً لرؤية الشاعر.

وكانت الخمر أداة فعالة لأبى نواس فى ذلك لأنها بطاقتها النشطة المتدفقة تثرى الأجواء الحركية بفيض من الحيوية يرفد النزعة القاهرة إلى الحرية ويتكامل معها، ولأنها برقتها المعهودة تشعر الإنسان بالبون الشاسع بينها وبين الأجواء الجاهلية القديمة التى لا مناص من أن تكون خشنة غليظة إذا ما قيست إلى النعومة الوافدة، وكانت الخمر بذلك أداة تحقق مبدأ الجهر بالخطيئة الذى يصّاعد كلما ازداد تدفق الحركة.

وإلى ذلك كان لأبى نواس الجرأة المواتية للوقوف بكل حسم أمام النقاد المتعصبين للقديم، بثورته على المقدمة الطللية، وكانت له الريادة فى تحطيم هذا التقليد الذى تجاوزه الزمن، وذلك بإعراضه عن تلك المقدمة التى لا تربطه بها – فنياً ونفسياً وواقعياً – وشيجة ما. ولم يتردد فى إرساء دعائم راسخة للمقدمة الحضارية الجديدة التى تتغنى بالخمر والغزل بالمذكر، ولم يكن صنيعه مجرد مدح نظرى تقليدى لهما، وإنما كان مصحوباً بتجديد واسع المدى، يضفى عليهما آفاقاً درامية ثرية لم تكن موجودة من قبل عند السابقين ممن وصفوا الخمر، وهذا بدوره يحقق لتلك الدعوة الحضارية تكاملها المطلوب.

ولا أحسب أن ثمة طموحاً حميداً يجاوز فى مشروعيته وموضوعيته الطموح العلمى، ونمط من هذا الطموح الحميد أن يوفق الله الباحث فى ميدان تخصصه إلى مجهول فيظهره، أو إلى نقص فيستكمله، بحيث يضيف بالفعل جديداً إلى آفاق هذا التخصص، هكذا فعل أستاذى الجليل الدكتور محمد زكى العشماوى حين درس النابغة وعبد القاهر وسواهما من القضايا والبحوث البادئة وكذلك كان صنيع أستاذى الدكتور هدارة حين درس مشكلة السرقات ثم اتجاهات الشعر فى القرن الثانى، وحين إنتهيت بمعية أستاذى الدكتور هدارة إلى اختيار موضوع أثر أبى نواس فى شعراء القرنين الثانى والثالث غمرنى شعور من الرضا كبير، بيد أنه مشوب بقلق الإدراك لفداحة الاختيار وجسامته، أما الرضا فلأنه كان من اللافت حقاً أن شاعراً هائلاً فى حجم أبى نواس يمكن أن نلحقه دون تجاوز بالمتنبى فى أنه ملأ الدنيا وشغل الناس بجديده فى الفن والحياة، كان من اللافت أن الدراسات الكثيرة التى توفرت على حياته وفنه لم تنتبه إطلاقاً إلى أثره فى الشعراء المعاصريه والتالين له. وكأن صنيع الشاعر إبداعاً وسلوكاً – كان صرخة فى واد لم يصادف أذناً تسمعه أو نفساً تنفعل به و تتشربه فتتأثره، أو أنه كان مبتسراً قليل الشأن بحيث لا يترك أثراً أو يجتذب مريدين وأشياعاً. ولما كان الأمران كلاهما مردودين عقلاً ونقلاً، فقد تولد الرضا إذن من أننى وفقت إلى موضوع يتسنى لى من خلاله استيفاء جانب فنى خطير، يسهم بغير شك، إن شاء الله، فى استكمال التشكيل الفنى والإنسانى للشاعر العملاق أبى نواس، أما القلق من جسامة الاختيار فنابع من السعى إلى رصد أثره فى شعراء قرنين هما أزهى عصور الشعر العربى وأحفلهما بالشعر والشعراء والصراعات العرقية والعقدية والفنية، ولقد أدركت أن ما استهولته من من تتبع أثره فى شعراء قرنين بتمامهما، هو ضرورة منهجية لتدعيم قضية يتناولها – فيما أعلم باحث للمرة الأولى،ومن ثم لا يجوز أن تكون حجيته فيها جزئية أو عارضة أو مبتسرة، وإنما يتعين أن تقوم دعائمها على ثراء دال من الشعر ومبدعيه فى القرنين آنفى الذكر. ومما يؤكد هذا التصور أننى كثيراً ما جوبهت

بتسائل جاد يقول: وهل كان لأبى نواس أثر فى غيره من الشعراء؟.

ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يَشْـرُفَ البحث وصاحبه برعاية عَلَمَيْن للدراسات الأدبية والنقدية فى مصر والعالم العربى، هما المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة طيب الله ثراه ابتداء لتوجيه الباحث فى اختيار الموضوع ووضع خطته المبدئية، ثم ينتهى الأمر بتمامه إلى أستاذى الجليل الدكتور محمد زكى العشماوى أطال الله فى عمره ومتعه بالصحة والسعادة، فكانت له إضافاته الخلاقة وتوجيهاته الأكاديمية والذوقية الهادية فى توجيه البحث والباحث، وهو صاحب الدراسات الرائدة فى شخصية أبى نواس وفى فنه.

ولقد وجدتنى مأخوذاً بدوافع النفس وبطبيعة الدراسة إلى اعتماد المنهج النَصّى التحليلى التذوقى فى معالجة قضايا البحث الكثيرة والمتشعبة، ولا أخفى أن دوافعى إلى هذا المنهج قد ردفها ودعمها تأثرى بنهج أستاذى الجليل الدكتور العشماوى ذى الأكاديمية التحليلية المحكمة، والشاعرية التذوقية المرهفة.

أدعو الله جل شأنه بفضل من عنده، وبتوجيه أستاذى الجليل الذى قد أفاء على البحث من فيض حدبه ورعايته للبحث وصاحبه، أن أكون قد وفقت إلى وضاءة الحق وإلى آفاق الصواب، إنه سبحانه وتعالى من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين ابتداء وانتهاء.

التمهـــيد

يعد أبو نواس من أبرز الشعراء على مدار تاريخ الشعر العربى بصفة عامة والقرن الثانى بصفة خاصة، وليس مرجع هذا إلى قوة شاعريته فقط، صحيح أن لشاعريته القوية إسهاماً بارزاً فى تسنمه هذه المكانة الرفيعة بما أفاء الله سبحانه وتعالى عليه من موهبة زاخرة بالبراعة الفنية والصنعة الماهرة التى اتسمت بصدق نفسى تزداد نماء كلما تحققت بإطاره، ولكن مما أكسب أبا نواس هذه المكانة أيضاً كونه شاعراً ثوريا مجدداً، ثار على منهج القدماء الشعرى ثورة المناضل العنيد حتى يتحقق للشعر العربى صفة مواكبة الواقع الحضارى والتفاعل معه، فتكتسب العبارة الشعرية بعداً جديداً حين تتفتق خيالات الشعراء عن صور جديدة مبتكرة لم تكن تتحقق فى ظل الأطر القديمة، ويزيد فى نماء هذه الصور أنها تجمع بين الأصالة الباقية والمعاصرة الخلاقة التى تبلور القديم فى رونق جديد يُضفى عليه مسحة غير مألوفة من عبق الحاضر، فتقاس عبقرية الشاعر آنذاك بمدى نجاحه فى التوفيق بين هذين العنصرين، فثورته على المقدمة الطللية التىلا تتناسب مع معطيات العصر الجديد، كانت ثورة رائدة حَرَّرت القصيدة من أغلال الانحصار فى تقليد شعرى قديم لا يتناسب مع مستجدات العصر، ولم يكن أبو نواس فيها مجْرد داعية يردد شعارات نظرية جوفاء لا تقترن بتطبيق عملى، بل قرن الدعوة بالتطبيق العملى فى مقدماته الخمرية لمدائحه، ولم تكن مجرد إحلال لديباجة محل ديباجة أخرى كما رأى د. مندور، فقد حقق لها أبو نواس صنعة شعرية فائقة تكفل لها الانتشار الواسع والقوة اللازمة والندية للمقدمة القديمة، ولم تكن- كما ذهب د. أحمد الجوارى - مجرد تأثر بشرب الخمر، بل كانت رمزاً لوجوب انطلاق الشاعر من ذاته وإحلالها محل كل ما يُصفِّد القريحة الشعرية بالأغلال.

وقد ترتب على هذا زوال الصور التقليدية التى كانت لسان حال بيئة خشنة تتسم بشظف العيش، وتتنافى مع الواقع الحضارى الجديد الذى طرأ على البيئة الجديدة. وحلت محلها صور جديدة تتسم بالتدفق والحيوية والحركية، وغدت التشبيهات والاستعارات والصور الفنية كافة أكثر طرافة ورشاقة، وأصبحت الأوزان أكثر انسيابية وحيوية، وصار الخيال بهذه المقدمة، يستمد قوته من التوفيق بين الموروث والحاضر المعيش.

وكان أبو نواس أيضاً من أعلام المجون والشذوذ فى عصره مما بوأه مكان ريادة هذه الموجة، وتمتلئ كتب أخبار الشعراء بما حُكِىَ عنه من مواقف ونوادر تجعله مضرب الأمثال فى هذا المضمار، وتأتى أهميته فى ميدان الشعر مما فاض به ديوانه من أشعار فى هذا المجال، وكانت أهميتها أيضاً نابعة من كونها تربط التجربة الشخصية له بمستجدات العصر الحضارية، وكان له أسلوبه المُمَيَّز فى هذا الخصوص، وكان المجون والشذوذ عنده دلالتان هاماتان على تأجج التمرد وروح الحضارة المنصهرين بكيانه، فهما تمرد على الروح الدينية التى يتعارض سلطانها مع سلطان الذات التى لا تقنع إلا بأن يكون لها مطلق السيادة والتوجيه المحض، ليصير علم الحرية خفاقاً لا يُنَكَّس، وعلامة حضارة أيضاً، كى يصبح الإنسان مرآة عصره من ناحية، وفعالاً فى تشكيله من ناحية أخرى ولا يكون أسير قوالب مكرورة لا تتناسب مع حال الزمان، فقد طرأت عادات جديدة بوفود الفرس واختلاط العرَب بالأجناس الأخرى، وحل الترف والحياة الناعمة محل خشونة العيش، وكل ما كانت تتسم به بيئة الجاهليين من أساليب جافية لا تتماشى مع معطيات العصر الجديد.

لقد انتشرت فى هذا العصر الأديرة وحانات الخمر المبنية على الطراز الفارسى بأساليب عمرانية لا عهد للبيئة الجاهلية بها، وصُمِّمَتْ القصور والبساتين على أحدث الطرز المعمارية، وكَثُرَ الغلمان الفرس

والأجانب الذين يقومون بخدمة مُرتادى مجالس الخمر، وكانوا على قدر عال من الجمال الخلاب، وتغاير أزياؤهم اللباس العربى المعهود، وكثرت الأدوات المستخدمة فى شرب الخمر من أباريق ودنان من صنع الفرس. وكان شعر أبى نواس ميداناً حياً يعكس كل هذه التطورات.

أضف إلى ذلك أن شعره يعكس التطور الحضارى بصورة أخرى من ناحية الأوزان الخفيفة المنتشرة بديوانه والمتسمة بالتدفق والحيوية، وما أحدثه من أساليب جديدة فى مجال القصص الخمرى تقوم على الترقب والتشوق والإثارة والمغامرة. ونجد الشعر المزدوج والرباعى والقوافى الداخلية فى قصائده ومقطعاته.

وكانت تجربة الزهد لدى أبى نواس أيضاً تجربة ثَرَّة فقد امتزج فيها البعد الحضارى والبعد النفسى، وكانت على قدر رفيع من الصدق الفنى، والمقدرة الشعرية الفذة، وهى بقدر ما كانت انعكاساً لتجارب واقعية، فإنها كانت كذلك صدى لما ماجت به الحضارة الجديدة من تحرر فكرى وأخلاقى أفضى إلى تزعزع القيم الدينية لدى فريق كبير من الناس، مما أدى إلى تفاقم الإحساس بالذنب ومعاناة الندم لدى من استسلموا لهذه الموجة الوافدة، وذلك لأن النزعة الدينية كامنة فى الذات الإنسانية مهما اعتراها من زيغ أو تشتت.

وهذا البحث يعالج قضية جديدة لم تعالجها الدراسات التى أقامت على أبى نواس - حياة وفناً - من قبل، وهى امتداد أثره الشعرى إلى الشعراء فى المحاور السابقة، فقد كان أبو نواس شاعراً له خصوصية فى التجربة، وعمق فى الأداء الفنى قلما يتكرر بالكيفية نفسها لدى غيره من الشعراء، فلم يكن غريباً أن تنعكس كل هذه السمات على الكثيرين منهم فنجدهم يتأثرون به، ويحاكون أسلوبه، ويمتد هذا التأثر ليشمل المضمون والشكل - فضلاً عن السلوك المعيش فى واقع الحياة.

والبحوث السابقة التى درست أبا نواس قد تناولت محاور أخرى بعضها خاص بحياته، والآخر بفنه الشعرى، شكلاً ومحتوى، والمؤثرات الحضارية التى أثرت فيه، فدرس بعضها مجونه، والآخر زهده، وغيرها خمرياته، وشمل هذا أيضاً تمرده على الموروث الدينى والشعرى، وثورته على المقدمة الطللية. وبعضها رصد الأثر الشعوبى لديه، ودار الخلاف حول صحة نفى شعوبيته أو إثباتها، وهى أيضاً بدورها كانت انعكاسا للمستجدات الحضارية، خاصة مع محاولة الفرس توطيد كيانهم أمام نزعة الفخر العربية، واختلفوا أيضاً حول منطلق أبى نواس فى التجديد الشعرى فيما يتعلق بمقدمة القصيدة، هل الدافع هو الشعوبية، أم التجديد الفنى فقط، واختلف بعضهم أيضاً حول قيمة هذا التجديد: ففريق رأى أن ما فعله أبو نواس بإزاء مقدمة القصيدة لا يعدو كونه إحلالاً لديباجة محل ديباجة أخرى - كما رأى د. دمندور - وفريق استجاد هذا التجديد ورأى فيه انطلاقة شعرية طموحة ومنهم الدكتور طه حسين وأستاذى الدكتور محمد زكى العشماوى، والدكتور، محمد مصطفى هدارة، والدكتور حسين عطوان.

ومن هذه البحوث التى تناولت أبا نواس سابقاً دراسة الزبيدى لزهدياته، ومقالات د. طه حسين عنه فى حديث الأربعاء، ودراسة الدكتور النويهى النفسية له محاولاً فيها تطبيق علم النفس الحديث عليه لإثبات عقدة الأمومة وتأثيرها فى شعره، وصنع العقاد الصنيع نفسه عندما طبق علم النفس الحديث عليه ليحاول إثبات نرجسيته، ودرس الدكتور أيمن العشماوى خمريات أبى النواس من الناحية الموضوعية والفنية، كما درس الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى كتابه ألحان الحان الخمر والغزل بالمذكر واتجاهاتهما عنده، ودرس فى كتابه (أبو نواس)، حياته وعلاقتها بموضوعات شعره، وصنع عبد الحليم عباس الصنيع نفسه فى كتابه (أبو نواس)، ولأستاذنا الدكتور محمد زكى العشماوى مقالات قيمة بكتابه (موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى) بلورت فلسفة التمرد عند أبى نواس، وعلاقتها بانفصاله عن الواقع الزمانى والمكانى

ورؤيته للحياة، وفلسفته الجمالية، وقد أوضح أستاذنا الدكتور- محمد مصطفى هدارة - فى كتابه (اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى) رؤيته لتجديد أبى نواس فى مقدمة القصيدة موضحاً أن الدافع وراءها ليس الشعوبية، وقدَّم الأدلة على هذا.

ودرس الدكتور جميل سعيد فى أحد أبواب كتابه عن الخمريات فى الشعر العربى اتجاهات الخمر لدى أبى نواس، الأمر الذى فعله أيضاً الدكتور محمد حسين فى كتابه (شعر الخمر والناقة)، مقارناً بينه وبين الأعشى. أما الدكتور أحمد على دهمان فقد درس شعر أبى نواس فى ضوء النقد القديم والحديث، ودرست الدكتوره أحلام الزعيم رؤية أبى نواس للحياة وتمرده عليها من خلال مجونه وشعره، ودرس الدكتور على شلق غزل أبى نواس بالمذكر وغزله بالنساء فى كتابه (غزل أبى نواس)، وله مؤلف عن تمرد أبى نواس ورؤيته للحياة هو كتابه "أبو نواس بين التخطى والالتزام"، وكذلك درس أدونيس محور التمرد والتجديد عنده فى كتابيه (الثابت والمتحول)و (مقدمة للشعر العربى) ودرس الدكتور على أبو زيد فى كتابه (زهد المجان فى القرنين الثانى والثالث) زهد أبى نواس على أنه من المجان ثم تزهد، ورصد الدكتور يوسف بكار فى كتابه (اتجاهات الغزل فى شعر القرن الثانى الهجرى) اتجاهات الغزل لدى أبى نواس سواء الغزل بالمذكر أم بالمؤنث، أما الدكتور حسين عطوان فقد بَيَّن فى كتابه (مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى الأول) اتجاهات أبى نواس فى مقدمات قصائده، تلك التى حاكى بها الجاهليين - والتى ثار فيها عليهم، وكذلك مقدماته الغزلية، أما الدكتور عبد الحكيم راضى فقد درس فى كتابه (النقد العربى وشعر المحدثين فى العصر العباسى) موقف النقاد من تجديد أبى نواس موضحاً أنه لم تقم خصومة قوية حوله، ولنجيب البهبيتى مقالات مختصرة عن أبى نواس فى كتابه (تاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث الهجرى).

وهكذا لا نجد بين البحوث آنفة الذكر من يرصد أثره فى معاصريه ولاحقيه من الشعراء.

وهى فيما نرى قضية على قدر كبير من الأهمية لا يستهان به، فبدون استجلاء جوانبها يستحيل علينا- موضوعيا- أن نحدد الحجم الفنى والإنسانى الحقيقى لهذا الشاعر المرموق ذى السمات المتفردة فى تاريخ الشعر العربى قديمه وحديثه.

الباب الأول
الدعوة إلـى التجديد : دوافعها وظواهرها

الفصل الأول
دوافـــع التجـــديد

أولاً ـ الدافع الاجتماعى الثقافى وتغير وجه الحياة :

على الرغم من إيماننا الثابت بأن العبقرية الفردية هى الأساس فى صيغ التحولات الهائلة فى التاريخ وفى الفن وفى المجتمع، فإننا نؤمن كذلك بأن تلك التحولات إنْ هى إلا حصاد التفاعل الخلاق بين الفرد المتميز وبين المكونات الحضارية الحاكمة للبيئة، ومن ثم تعين علينا أن نبدأ بالعام لننتهى إلى الخاص.

فعندما يقف الباحث ليرصد أثر أبى نواس فى الشعراء، لا يستطيع بأى حال أن يتجاهل التطورات الحضارية التى طرأت فى العصر العباسى والتى كان لها أبلغ الأثر فى إمداد نزعته الحضارية والفنية بالزخم اللازم الذى جعل لها دَوِيّا فى الآفاق، لأن دعوة أبى نواس كانت قد استقت فعاليتها من ينبوع لا نستطيع إغفاله ما دمنا نتلمس الموضوعية، هو إدراكه الصائب لحقيقة أن الفن والتفاعل الحضارى وجهان لحقيقة واحدة، فلن يتحقق الصدق الفنى للتجربة الشعرية الخلاقة إلا عندما يستمد الشاعر فعالية تجربته العاطفية من انصهاره فى بوتقة كل ما يحيط به من مظاهر الحضارة، لأنها تمثل الواقع المعيش الذى يمارس فيه حياته اليومية، ويسعد ويحزن من خلاله، ويعشق ويكره فى إطاره، ويتفاعل أو يصاب بخيبة الأمل أيضاً، ويتعامل مع أفراده الذين تشكلوا بما يتماشى مع هذا العصر الجديد، ويتنافر أشد التنافر مع عهد بائد هو العصر الجاهلى، ويفترق عنه افتراقاً بيناً، فهو عصر وفدت فيه على البيئة العربية عبقريات الحضارات الأخرى الخلاقة حاملة معها عبق نتاجها الفكرى وأريجها الثقافى الذى أحدث تحولاً واسعاً فى بنية العقلية العربية وتركيبها، فانقلبت الموازين رأساً على عقب، وتغيرت القيم التى سادت من قبل فى العصر الجاهلى، وكان من ضمن مقومات هذا الانقلاب فى كيان المجتمع أن يكون للإنسان استقلاله الذاتى بحيث يتزحزح عن حافة التبعية والانقياد التلقائى لموروثات عفا عليها الزمن، ويوازن بين التراث والمعاصرة، هذا التوازن الذى يحفظ للتراث هيبته، ولكن من خلال بلورة خلاقة تصوغه فى قالب جديد يتناسب مع مستجدات العصر، فيخرج بذلك عن صورته التقليدية التى إن اتبعها الشاعر بحذافيرها، فسوف تتسم تجربته بالزيف ومجافاة الصدق، ومن ناحية أخرى فإن هذا العصر كان قد تميز بخاصية هامة هى أن يكون للإنسان وجوده المستقل، وذاتيته التشريعية بحيث يصبح مساهماً ومشاركاً ومعدلاً فيخرج عن كونه مجرد متلق تُملى عليه كل الأطر التى يحظر عليه أن يسير خارج دوائرها المرسومة، ومن هنا أيضاً يصبح له كيانه الإيجابى الذى يسمو به. وكان هذا العصر قد شهد تطوراً بارزاً نتيجة هذا الامتزاج بين العقلية العربية وبين العديد من الحضارات الأخرى منها الحضارة الفارسية واليونانية والعديد من الحضارات الأخرى، التىحملت معها ثقافاتها فنونها وآدابها فأثرت الكيان العربى وغيرت مساره العقلى والوجدانى، وهذا بالتالى يجعل العقلية العربية أكثر مرونة وتفتحاً لاستيعاب المبادئ والأفكار الجديدة التى تنم عن تبلور الكيان الإنسانى.

يقول د. أحمد عبد الستار الجوارى:- "ومن عوامل التجديد فى بغداد غلبة الأعاجم على الحياة الاجتماعية، وصيرورتهم عنصراً أساسياً من عناصر التوجيه، فانطبع المجتمع العباسى فى كثير من نواحى حياته بطابع غير عربى، وعرف الترف والبذخ، وأصبح اللهو والشراب والأنس أشبه شىء بالضرورة اللازمة فى الحياة، كان فوق ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من تزلزل بعض القيم الاجتماعية التى سار عليها المجتمع الإسلامى محتفظاً بالتقاليد العربية الجاهلية من فخر بالأنساب.....إلخ"(١).

ويقول فى موضع آخر:- "وحدث من جراء ذلك أيضاً أن أعان القوم على تسرب الحضارة الفارسية إلى الحياة العربية، ودخول الأفكار الغريبة والعقائد الأجنبية التى اتضح أن من أغراضها ومراميها زلزلة العقيدة الإسلامية، ومهاجمة الدين الذى حمله العرب فى عقر داره.

---

(١) أحمد عبد الستار الجوارى، الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى: ٢٠١، وزارة المعارف العراقية د.ت.

على أن ذلك لم يكن شراً كله، بل لقد كان فيه إلى جانب ضرره البالغ نفع لا ينكر، فقد أثار نشاطاً عقلياً عنيفاً، وفتح للشعراء مجال الاطلاع على الثقافة والأفكار الأجنبية فجنى منه الشعر أطيب الثمرات.

ولم يقتصر أثر الأعاجم وغلبتهم على الحياة الاجتماعية على التجديد فى بعض فنون الشعر وتوجيه بعضها الآخر وجهة جديدة، بل كان له أثره فى أسلوب الشعر وطريقته فى التعبير، فقد جنح أسلوب الشعر إلى السهولة ونبذ الغريب من أجل الأعاجم، لأنهم لم يكونوا يفهمونه أو يتذوقونه بطبيعة الحال، فأخذ الشعراء يتجنبونه ويتعمدون أن يتبسطوا فى الأسلوب ويتحللوا من الطريقة الفنية المألوفة فى التعبير حتى انحط بعضهم بأسلوبه إلى العامية.

ولقد كان من آثار الأعاجم فى حياة الشعراء أن تغير معيار الشعر واختلف تقويمه، فأصبحت خفة الطبع، وقرب المأخذ، وسهولة الأسلوب هى الأمور التى بها يقاس تجديد الشاعر وتقدمه، وبها يحظى عند الأمراء ورجال الدولة، الأعاجم خاصة"[١].

وفى هذا العصر أيضاً نشطت حركة الترجمة التى نقلت المعارف والآداب عن الأمم الأخرى خاصة الإغريق والفرس مما كان له أبرز الأثر على تجديد العقلية العربية وإلباسها ثوباً جديداً لم تعهده من قبل ومما أكسب هذه الحركة النماء ورعاية الخلفاء لها، فنجد المأمون مثلاً ينشئ بيت الحكمة فى بغداد، وكان لهذه الدار العلمية الفضل فى ترجمة آثار علمية عظيمة، كما نقل لنا أوليرى "مثل تيماووس من تأليف أفلاطون، وبعض مؤلفات أبقراط وجالينوس وأرشميدس، وقوانين الجمهورية، والمقولات والطبيعيات، وكان من أبرز المترجمين فى هذه المدرسة يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق العبادى".[٢]

وينقل لنا ابن النديم فى الفهرست أسماء عدة كتب ترجمت عن الفرس، وقد حوت من الحكمة الكثير، ككتاب خرافة ونزهة". والدب والثعلب، وهزاروستان، وكتاب المربين، ورزبة اليتيم[٣]، وينقل جرجى زيدان أيضاً أسماء كتب أخرى فارسية مثل التاج فى سيرة أنوشروان، وخداينامة فى السير، ورستم وأسفنديار، وآيين نامة، وبهرام شوس، والأدب الكبير والأدب الصغير"[٤].

ثم نجد أن المؤلفات التى اهتمت بالمجال الفلسفى والعقلى قد تُرجمتْ فى هذا العصر، ومنها ما كان من تأليف أرسطو، وقد قال أوليرى إنها أوردت فى الترجمات السريانية، مصحوبة ببعض التعليقات التى كان جزءاً منها بالسريانية. والآخر بالإغريقية ويذكر أنه بعد وفاة الرشيد قام العرب بالاحتكاك بفلسفة أرسطو"[٥].

ويذكر ابن النديم المؤلفات المنطقية التى ألفها أرسطو وهى "قاطيغورياس أى المقولات، وأنا لوطقيا أى تحديد القياس، وأبود طيقا أى أنالوطيقا الثانى، أى البرهان، وبارى أرمانياس أى العبارة، وطوبيقا أى الجدل، وسوفسطيقا أى المغالطين، وريتوريقا أى الخطابة"[٦].

---

(١) الشعر فى بغداد : ٢٠٣.

(٢) أوليرى، الفكر العربى : ١٢١/١٢٦، ترجمة د. تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١.

(٣) ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست : ٤٢٥، المطبعة التجارية القاهرة ١٣٨٤ هـ

(٤) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى : ١٧٦/٣. مراجعة د. حسين مؤنس، دار الهلال.د.ت.

(٥) أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب : ٢٢٩، ترجمة د. تمام حسان، الأنجلو المصرية ١٩٥٠.

(٦) الفهرست : ٣٤٧.